جغرافية بابل واشور (تابع ما قبله)

لحناب الاديب جميل افندي نخلة المدوَّر

أَشُّور بتشديد الشين اقليم كبير متسع من آسية تُعرَف ناحيتهُ اليوم بكردستان وهو كريم البقعة غاية في الخصب يخترقهُ انهار اربعة كبيرة احدها نهر دِجلة وليس في ذلك الاقليم احسن منظرًا منهُ ولا اقوى اندفاعًا ولا اكثر سرعةً في سيره يضاهي الفرات وبعدهُ نهر اريس ونهر غورغوس ونهر زابس ويتخلَّل هذا الاقليم جبال متشعِّبة واودية كثيرة كانت مشحونة بالبساتين الانيقة والجنات النضيرة الاَّ ان اكثرها اليوم قد عاد قفرًا غامرًا . وكان لاشور من المدن الكبيرة والقلاع الحريزة والضياع الخصيبة شيءٌ كثير جدًّا وكانت في اوَّل امرها ضيقة النطاق قليلة العمران وفيما ذكرهُ موسى النبي عم ما يستفاد منهُ ان حدَّها الغربي لم يكن يتجاوز دِجلة وليس في كلامهِ ما يدلُّ على انها كانت مملكة في ذلك العهد ولكنها عقيب ذلك اخذت تتوسع بكثرة الابنية والسكان ومدّ العمارة حتى بلغ طولها خمس مئة ميل في عرض نصفها فيما يقال على التقريب فتكون مساحة ارضها ما ينيف على مئة الف ميلٍ مربع

وقد خبط المتقدمون في الكلام على اشور خبطًا عجيبًا لا يكاد يتخلَّص منهُ لتحقيق تاريخها واغرب ما هنالك ان ديودورس لم يفرق بين اشور وسورية لانهُ يقول في بعض كلامهِ عن هذه المملكة ما معناهُ ان نينوس رام ان يخلِّد لنفسهِ ذكرًا ويصنع ما يعتبهُ فخرهُ فاخذ في بناء مدينة كبيرة في سورية يقرُّ فيها سرير ملكهِ ويجعلها مبآءةً لهُ ولاعقابهِ بحيث لا يكون لها شبيه ولا يتيسَّر بناء مثلها على مرِّ الاحقاب فحشد اليهِ العملة والصنَّاع من طوائف شتى وبنى اسس المدينة على شكلٍ مستطيل ثم حوَّطها بسور اكثر ما بلغ طولهُ ١٥٠ استادة واقل ما كان عرضهُ ٩٠ استادة فيكون طول السور اربع مئة وثمانين استادة وكان ارتفاع السور مئة قدم وثخنهُ بحيث تجري عليهِ ثلاث من العجلات صفًّا واحدًا وابتنى على السور بروجًا تبلغ الفًا وخمس مئة عدًّا وهي تعلو السور بمئة قدم وارتفاعها من الارض مئتا قدم قال ولما اتمَّ نينوس هذه المباني ودعا الناس لسكنى المدينة سماها نينوى باسمهِ والتقى فيها خلا الاشوريين وهم اعيان المدينة امم وقبائل شتى تباين مذهبًا ومشربًا وما لبثت المدينة الاَّ يسيرًا حتى صارت من اشهر المدن انتهى ببعض اختصار . وقال هيرودوطس في وصفهِ لاشور انها تشتمل على كثير من كبير المدن وان اعظم تلك المدن مدينة بابل وقد اتخذها ملوك البلاد عاصمة لهم منذ خراب مدينة نينوى اه فعدَّ بابل من جملة مدن اشور واجماع المحققين على خلافهِ ثم ذكر ان بابل

انما اتخذت مبدأة للملوك منذ خراب نينوى والذي نعلمه ان غير واحدٍ من ملوك الكلدان في بابل وملوك اشور في نينوى كانوا متعاصرين في آنٍ واحدٍ

واوّل من ذكر اشور على حقيقتها بطليموس الفلكي المشهور وهو من اعلام القرن الثاني للميلاد قال بعد ما شالاً القسم المحاذي لجبل نيفاتا من ارمينية الكبرى وغربًا بعض ما بين النهرين وهي الجهة التي تُسقى بماء دِجلة وجنوبًا مملكة شوشانة وشرقًا مملكة مادي وفيها ثلاثة انهر تنتهي الى دِجلة بعد ان تسقي معظم اراضيها وهي ليكوس وكابروس وغرغوس . قال وتقسم اشور الى عدة اقسام احدها ارهباخيتس ثم ابولونيانس وموقعها بين سيتاكينا وبلاد الفراميين وبليها بلاد السباطيين ثم بلاد الفراميين وفي جنوبي اذ يابينة كلكينيكي ويليها مقاطعة اربلة وقد ذكر كثيرًا من مدنها باسمائها مع تعيين درجات طولها وعرضها كنينوس ومردة واكتريفون وغوغامالة واوزابا وسيتاكي وغوشارا واربلة وابولونيا واسوخيس وغيرها وجملة ما عدّدهُ منها اربع وثلاثون مدينة تختلف عظمةً واتساعًا لكنهُ لم يذكر بينها راسن ولا اولبيس ولا مسفيليا وقد كُنَّ من اشهر المدائن في تلك الناحية فالظاهر انهُ اقتصر على ذكر المدن التي عاينها بنفسهِ لان هذه كانت في عهدهِ قد صارت الى تمام الخراب ولم تبقِ لها الايام اثرًا

وكان ابعد مدن اشور شهرةً واعظمها شانًا مدينة نينوى حتى لم يكن في تلك البلاد اشدّ منها سطوةً ولا اوسع ثروةً وعمرانًا ما خلا مدينة بابل فانها كانت اوسع منها مساحةً واضخم اسوارًا واضخم ابنيةً الّا ان بلوغ كلٍّ منها حدّ عظمتها لم يكن في زمان واحدٍ لان بابل بلغت مبلغها من العمران والاهبة بعد ان اخذت نينوى في التراجع والانحطاط وكان معظم شهرة نينوى في عصر سخاريب واعقابهِ وكانت دار ملكهم ومبدأة سريرهم وكانت تساق اليها الارزاق وتحشد اليها الناس من كل وجه والملك يزيدها جاهًا وفخامةً حتى بلغت من العزّ والسطوة والغنى ما لم تبلغهُ مدينة اخرى في ذلك العهد وما زالت على حالها تلك من النموّ والعظمة الى ان تفرّغ اهلها للملذّات والملاهي ودبّ فيهم داء الترف ونعمة العيش فزحف عليهم البابليون وافتتحوا المدينة ودمّروها وحملوا ما فيها من الغنائم والاموال فعادت قاعًا صفصفًا . اما باني نينوى فعلى ما في رواية موسى عم (تك ١٠ : ١١) انهُ اشور بن سام وقد بنى مدنًا اخرى ذكرها هناك والاشوريون يزعمون انها سُمّيت باسم اشور كبير آلهتهم وان هذا الاسم يُطلق بالاشتراك على كل ملك من ملوكهم تبركًا وهم الذين بنوها . وفي كلام بعض الباحثين ان بانيها اعقاب نمرود ملوك بابل ونواحيها ولم نرَ ما يؤيّد هذا القول وفي الكتاب ما يعارضهُ بالنصّ الصريح وذهب المؤرّخون من اليونان والرومان وتابعهم بعض المتأخّرين الى ان اوّل من وضع اسسها نينوس وقد تقدّم في ذلك كلام لديودورس والله اعلم